

ظاهرة الفساد الخلقي والانحراف السلوكي في القيروان
من خلال فتاوى "محمد بن سحنون" ت 256هـ / 870م.
the phenomenon of immorality and the bad
behavior In Kairouan through the Answers
Ibn Sahnoun (fatawa)of Mohamed

د. فطيمة مطهري *

جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان- الجزائر.

bentalha fatima@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2020/07/17 تاريخ المراجعة: 2020/07/25 تاريخ القبول: 2020 /09/04

المخلص:

موضوع هذا المقال يتناول صورا لظاهرتي الفساد الخلقي والانحراف السلوكي في القيروان وبعض أحكامها من خلال نوازل " أبي عبد الله محمد بن سحنون "؛ في كتابه: "الأجوبة أو الفتاوى لابن سحنون".
فكتاب "الأجوبة أو الفتاوى" تضمن جوابات صادرة عن عالم القيروان وابن عالم القيروان الإمام "سحنون بن سعيد التنوخي" على أسئلة كثيرة ومتنوعة؛ تشمل مشاغل

*د. فطيمة مطهري، جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان/الجزائر.

حياة الناس ومشاكلهم، وما يهمهم في معاشهم ومعادهم؛ وجهها إليه أحد تلاميذته: "محمد بن سالم" يستطلع بها حكم الله فيها. وأهم النقاط التي نطرحها لمناقشة هذا الموضوع تتمحور حول: ظاهرة الفساد الخلقي والسلوك المنحرف والمحظور في القيروان وأسباب هذه المظاهر السلوكية المنحرفة، ومدى أثرها وتأثيرها في الحياة العامة للمدينة، وكيف تعاملت السلطة والفقهاء معها للحد منها. الكلمات المفتاحية: القيروان؛ ابن سحنون؛ النوازل الفقهية؛ الانحراف السلوكي؛ الفساد الخلقي.

Abstract :

This article deals with situations of the phenomena of moral corruption , and behavioral deviation in Kairouan , and some of its rulings through the calamities of « Abu Abdallah Muhammad Ibn Sahnoun ».

The book : « Answers or fatwas » includes answers by the world of Kairouan Imam « Sahnoun Ibn Said Al-Tannoukhi » to many and varied questions, including the concerns of people's lives, and their problems, and what matters to them in their pension, and hostilities addressad to him by one of his students : « Muhammad Ibn Salem » explores it is the rule of God in it.

The issue that we raise in discussing revolves around : the phenomenon of moral corruption deviant , and prohibited behavior in Kairouan, the causes of these deviant behavioral manifestations, the impact of these in the city ; and how authority and jurists dealt with it to reduce it.

Key words : Kairouan ; Ibn Sahnoun ; Calamities ; Behavioral deviation ; Moral corruption.

مقدمة:

لقد أفتى الفقهاء في كثير من المسائل التي كانت تعترض الناس، ومن كتب النوازل الهامة التي اعتمد عليها في تدوين تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي عموما والقيروان في المغرب الأدنى بصفة خاصة؛ كتاب "الأجوبة أو الفتاوى" والذي هو بمثابة موسوعة تجاوزت مسائله وأجوبته الخمسمائة مسألة وجوابها؛ انتظمه تلميذ محمد ابن سحنون "محمد بن سالم" وضمنه عدة قضايا تمس الحياة الاجتماعية والفكرية والاقتصادية؛ فكان بحق هذا الكتاب كتابا فقهيا وحضاريا في آن واحد؛ أمارت اللثام عن خصائص ومميزات العصر الأغلبي السياسية والحضارية بصفة عامة.

إلى جانب كتب النوازل الأخرى ومنها: كتاب "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب" لأبي العباس أحمد الونشريسي، الذي مست نوازله مختلف الميادين والمجالات؛ وفي مقدمتها المجالات الاجتماعية والأسرية كالعلاقات الاجتماعية والبيوتات والأسر العلمية؛ فهي تنقل لنا صورا عن العلاقات الأسرية من زواج وطلاق وميراث ومختلف العلاقات الاجتماعية، كعلاقات العمل، وأعمال التكافل الاجتماعي من بر ووقف، والنسيج العمراني، وتخبرنا عن النشاط المذهبي، وأصحاب البدع والأهواء، ومختلف الفئات والطبقات الاجتماعية الخاصة والعامة، والسلوكات لاجتماعية والعادات والتقاليد.

ومما لا ريب فيه أن القيروان عرفت مثل غيرها من المدن المغربية في العصر الوسيط؛ وبالتحديد خلال القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي؛ وجود وانتشار عددا هاما من البطالين والشحاذين والسراق وأهل الدعارة، وما يدل على وجود هذه الظواهر في القيروان هو تخصيص محمد بن سالم مجموعة من الأسئلة التي وجهها لابن سحنون سعى المحقق أحد فصولها ب: "فصل السرقة والحراية"، ويظهر من إحدى إجابات محمد بن سحنون حول الشهادة على السارق أن أكثر السرقات تقع في الليل، وفي أوقات

الغفلة التي لا يحضرها العدول، وقد شملت السرقة الأمتعة والمواشي والمطامير، وقد وجدت العصابات في الطريق، فقد ذكر المالكي "أن اسماعيل بن رباح كان في رفقة، فسلهم السلاية، وكانت له في حياصته دنانير".

فكيف نظر محمد بن سحنون لهذه القضايا والمسائل المطروحة؟ وكيف كان طرحها في هذا الكتاب؟ وما هي الحلول والأحكام أو النظام الذي هدف إلى تقديمه هذا القاضي للمجتمع القيرواني كبديل لتلك التجاوزات والسلوكات المنبوذة، وما أهمية كتاب "الأجوبة" خاصة وأتة صدر عن فقيه مالكي وقاض وابن قاض في الشريعة الإسلامية وعارف للعادات الاجتماعية والمبادئ الأخلاقية السائدة في القيروان في تلك الحقبة؟

وقبل الإجابة على هذه الإشكالية علينا أن نعرّف بمحمد ابن سحنون وابن سالم وعصرهما:

المبحث الأول: التعريف بابن سحنون وابن سالم وبيئتهما

المطلب الأول: أبو عبد الله محمد بن سحنون التنوخي:

هو أبو عبد الله بن عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، ولد بالقيروان سنة 202هـ/ 817م، وتوفي سنة 256هـ/ 869-870م¹، ودفن بباب نافع بالقيروان، تربى و تعلم في كنف والده سحنون: (أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي القيرواني مولدا و وفاة (160هـ/ 854م، 240هـ/ 777م) والملقب بسحنون لذكائه وحدته

1- المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزادهم ونسأكم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ج2، تحقيق بشير البكوش، مراجعة محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ج1، ص- ص 249-260، الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج1، تحقيق، محمد ماضور، ومحمد الأحمدى أبو النور، مكتبة الخانجي، مصر، المكتبة العتيقة، ج2، ص- ص 49-68؛ محمد بن سحنون: آداب المعلمين، تحقيق محمود عبد المولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الجزائر 1981، ص39، وهذا التاريخ يتفق مع التاريخ المنقوش على مشهد قبره أو مقامه الموجود بإزاء مقام والده سحنون بالقيروان: ابن سحنون: نفس الصفحة.

في النظر، أصله شامي من حمص، وفد أبوه في جند حمص إلى إفريقية، صاحب "المدونة الكبرى" التي اعتبرها البعض الكتاب الأم بلا منازع لدى المذهب المالكي¹، كما وصفها البعض الآخر بـ "الكتاب الجامع لفروع الفقه المالكي" والتي وضعت أسس الفقه المقارن بعرضها لآراء مالك على أقوال الصحابة رضوان الله عليهم². وأبوه القاضي سحنون هو الذي بؤاه مكانة خاصة لأنه ترسم فيه ذكاء فطريا بارز، وتغرس فيه الإمامة فقال: "ما أشبهه إلا بأشهب"³، فقد سمع من أبيه وتفقه على يديه، وكان يناظره في شتى المسائل العلمية، وأخذ العلم كذلك من أبي جعفر موسى بن معاوية الصمادحي (الإمام الثقة الأمين العالم بالحديث والفقه، توفي سنة 225هـ/ 839م)، وعبد العزيز بن يحيى المدني وعبد الله بن أبي حسان اليحصبي والذي يعتبره أبو العرب ثقة في حديثه⁴ (تلميذ مالك

1- يقال أن الدواوين في المذهب المالكي سبعة: "مدونة" سحنون، "واضحة" ابن حبيب، "عتبية" العتبي، "موازية" ابن المواز، ويطلق على هذه الأربعة لقب "الأمهات الأربعة"، في حين يطلق على مدونة سحنون وحدها لقب "الكتاب" لأنها بالنسبة إلى غيرها من كتب المذهب كالفاتحة في الصلاة تجزئ عن غيرها ولا يجزئ غيرها عنها، تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض: سحنون (بن سعيد التنوخي ت 240هـ/ 854م): المدونة، نشر محمد ساسي المغربي التونسي، مطبعة السعادة، مصر، 1905، ج 1، ص 61، والدواوين الثلاثة الباقية هي: "مجموعة" ابن عبدوس، "مختلطة" ابن القاسم، "مبسوطة" القاضي اسماعيل، حمزة أبو فارس: مدونة الإمام سحنون، مراحل تدوينها- منزلتها بين الأمهات- شروحها واختصارها، محاضرات ملتقى الإمام سحنون، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، 7-8-9 جمادى الثانية 1412هـ/ 13-14-15 ديسمبر 1991، 1993، ط 1، ص - ص 113-116.

2- الشيخ عبد الرحمن خليف: القيروان من أغزر المنابع للفقه المالكي، محاضرات ملتقى القيروان، مركز علي مالكي بين المشرق والمغرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، ذو القعدة 1414هـ/ 15-16-17 أفريل 1994م، 1995، ط 1، ص 155-156.

3- الدباغ: المصدر السابق، ج 2، ص 80.

4- أبو العرب بن تميم (محمد بن أحمد القيرواني ت 333هـ/ 944م) : طبقات علماء إفريقية، تحقيق محمد بن أسد الخشني: دار الكتاب، بيروت، دون تاريخ، ص 155.

بن أنس والمتوفى سنة 226هـ/ 841م)¹، رحل إلى المشرق سنة 235هـ/ 848م لأداء فريضة الحج وطلب العلم، فأخذ العلم في المدينة عن أبي بكر الزهري، ويعقوب بن حميد بن كاسب، وعبد الله بن عبد الله بن نافع، وأنس بن عياض وابن الماجشون وغيرهم كثر²، وفي مصر أخذ عن عبد الرحمن بن القاسم وابن وهب، وأشهب وشعيب بن الليث ويوسف بن عمر وغيرهم من رواة الحديث وأصحاب مالك بن أنس³.

لقد كان ابن سحنون صورة من أبيه في لينوع والتفقه في الدين، فقال أحد معاصريه القاضي، عيسى بن مسكين: "ما رأيت بعد سحنون مثل ابنه"⁴، لقد أدرك من والده جميع العلوم فكان يسمع بعض كتب أبيه في حياته يأخذها الناس قبل خروج أبيه، فإذا خرج أبوه قعد مع الناس سمع معهم من أبيه⁵، وكانت له حلقة على حلقة أبيه⁶.

كان محمد بن سحنون أكثر أهل زمانه تأليفاً، وكان يؤلف في حياة والده الذي كان يقول له: "يا محمد احذر أهل العراق فإن لهم ألسنة حدادا، وإياك إن فلت قدمك فتعتذر فلا يقبل عذرك"⁷، كان غزير التأليف، ألف في جميع فنون العلم كتباً كثيرة تنتهي إلى المائتي كتاب⁸، ومنها: الجامع في الفقه، المسند في الحديث، الإمامة¹، تفسير

-
- 1- المالكي: الرياض، المصدر السابق، ج 1، ص 346، القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، ص 180، الديباغ: المصدر السابق، ج 2، ص 80.
 - 2- الديباغ: المصدر نفسه، ج 2، ص 79، محمد بن سحنون: آداب المعلمين، المصدر السابق، ص 43-44.
 - 3- محمد بن سحنون: آداب المعلمين، المصدر نفسه، ص 43.
 - 4- الديباغ: المصدر السابق، ج 2، ص 79.
 - 5- محمد بن سحنون: المصدر السابق، ص 43.
 - 6- المالكي: الرياض، المصدر السابق، ج 1، ص 345.
 - 7- الديباغ: المصدر السابق، ج 2، ص 80، محمد بن سحنون: المصدر السابق، ص 40.
 - 8- المالكي: الرياض، المصدر السابق، ج 1، ص 245، أبو العرب: الطبقات، المصدر السابق، ص 129.

الموطأ، الحجة القدريّة، الحجة على النصاري، آداب القاضي، آداب المعلمين وغيرها كثير². وحسب كتب التراجم فإنه ألف كتابه "الجامع الكبير" في مائة جزء، عشرون في السير وخمسة وعشرون في الأمثال، وعشر في آداب القضاة وخمس في الفرائض وأربعة في الاقرار وأربعة في التاريخ والطبقات³، وفي جانب آخر يذكر عياض أنه ألف كتاب التاريخ في ستة أجزاء⁴، وطبقات العلماء في سبعة أجزاء⁵. ويعتبر كتاب "آداب المعلمين" أول دليل موحد لأهل مهنة التعليم وتلاميذهم، وكل ما يهم أمر وظروف العلم والتعليم في مدينة القيروان، ومنها:

- التأكيد على فضل تعلم و تعليم القرآن، وهذا ما أكدّه في مستهل كتابه مرددا بعض الأحاديث المرفوعة إلى كبار الصحابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم⁶.
- التأكيد على أن قضية التعليم مسألة خاصة بالأولياء، وقد رأوا أنه شيء مما يختص أمره كل إنسان في نفسه، فأبقاه عملا من عمل الآباء⁷، ويقوم المعلم بهذا الدور

-
- 1- قال القاضي عيسى بن مسكين: لما وصل كتاب الإمامة إلى بغداد كتب بالذهب وأهدى إلى الخليفة"، المالكي: نفسه، ج1، ص246، الدباغ: المصدر السابق، ج2، ص82.
 - 2- محمد بن سحنون: المصدر السابق، ص50-51.
 - 3- القاضي عياض: المدارك، المصدر السابق، ص173، محمد بن سحنون: الأجوبة، تحقيق، حامد العلاني، الطبعة الأولى، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1432هـ-2011م، ص50.
 - 4- القاضي عياض: نفسه، ص173، ابن سحنون: نفسه، ص نفسها.
 - 5- ابن سحنون: نفسه، ص نفسها، محمد بلغراد: الحركة الإباضية في تهرت وسدراتة، مجلة الأصالة، العدد 41، 1977، ص114.
 - 6- محمد بن سحنون: آداب المعلمين، المصدر السابق، ص69-70.
 - 7- القابسي: الرسالة المفصلة في أحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، تحقيق، أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، الطبعة الأولى، تونس، يناير 1986، ص89.

نيابة عن الأولياء¹، وهكذا يساهم المعلم بدور كبير في نشر المعرفة المرتبطة بالشرعية أساسا.

- تحديد مكان ممارسة مهنة التعليم و التعلم حيث أورد ابن سحنون عبارة الحانوت الذي يجب على المعلم أن يكثره وليس الصبيان². ويصف محمد الطالبي التعليم في الكتاب بكونه تعليما ابتدائيا يخوّل للتلميذ المرور إلى التعليم العالي من التعليم الذي بأجر إلى تعليم حر وبدون أجر³.

المطلب الثاني: التعريف بمحمد بن سالم:

لقد أضيفت إلى اسمه المشهور به "محمد بن سالم" إضافات وزيادات كالكنية والصفة وغيرهما؛ مما أثار الشك فيه وفي كتاب الأجوبة ومن الزيادات لاسمه نذكر: -أبو عبد الله محمد بن سالم بزيادة" أبو عبد الله". -أبو عبد الله محمد بن سالم الأشعري بزيادة: "أبو عبد الله والأشعري". -محمد بن سالم القطان القيرواني بزيادة: "القطان والقيرواني". -محمد بن سالم القطان بزيادة "القطان". - وفي المدارك للقاضي عياض جاء باسم: "محمد بن سليمان القطان. -وفي البيان المغرب لابن عذارى المراكشي جاء: "محمد بن سلمون القطان⁴.

ومحمد بن سالم حسب محقق كتاب "الأجوبة" هو من أقرب تلاميذة محمد بن سحنون إليه، لكنه لم يرتق إلى مصاف العلماء والمؤلفين -وحسب رأي بسبب وفاته في

1-المصدر نفسه، ص نفسها.

2-ابن سحنون: آداب المعلمين، المصدر السابق، ص83.

3- محمد الطالبي: دراسات في تاريخ افريقية، السلسلة الرابعة، مجلد 20، منشورات الجامعة التونسية، تونس، ص156، دراسات في تاريخ افريقية وفي الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط، منشورات الجامعة، تونس 1982، ص- ص 151-156.

4- للمزيد أكثر عن ترجمة محمد بن سالم وأسمائه، ينظر: محمد بن سحنون، الأجوبة، تحقيق، حامد العلاني، الطبعة الأولى، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس. 1432هـ-2011م، ص- ص 21-24.

رعيان شبابه؛ إذ توفي قبل أستاذه ابن سحنون بسنتين- ويبقى التلميذ الذي اختص بالتدوين وبطريقة بسط الموضوع وإلقاء الأسئلة لتلقي الأجوبة الشافية الواضحة، وهو الطالب الذي تولى جمع مخطوطة الأجوبة لمحمد بن سحنون؛ فهو التلميذ المجّد الذي اعتنى بإلقاء الأسئلة وجمع الأجوبة وكتابتها. وتوفي رحمه الله تعالى قبل وفاة أستاذه محمد بعامين¹.

فما هي المسائل والقضايا التي تخصصنا في هذا الموضوع؟ وما هي الأحكام والفتاوى التي أصدرها فيها القاضي محمد بن سحنون؟ وهذا الذي سنناقشه ونتناوله في المطلب الثاني من المبحث الثاني.

المطلب الثالث: عصر ابن سحنون وابن سالم:

لقد كان ابن سحنون مرآة صادقة لبيئته التي ولد ونشأ فيها، ولد بالقيروان وتوفي بها في عهد الأغالبة؛ عاصر خمسا من أمراء الدولة الأغلبية، وقد قدر لهذا العهد أن يدوم 109 سنوات ميلادية و119 هجرية²، بداية من أول أمير وهو إبراهيم بن الأغلب في صفر من سنة 184هـ/ 800م³ إلى آخر أمير وهو أبو معز زيادة الله الثالث سنة 296هـ/ 909م، شهدت خلاله القيروان تطورات عديدة في شتى الميادين الحضارية من فكرية وثقافية واقتصادية واجتماعية وعمرانية، فقد ازدهرت الحضارة بالقيروان طيلة عهد

1- نفسه، صص 14-24.

2- محمد علي: الإشعاع الفكري في عهد الأغالبة والرسامين خلال القرنين 2-3هـ/ 8-9م، مذكرة ماجستير في تاريخ المغرب الوسيط، جامعة تلمسان، 2007-2008، ص30.

3- ذكر بن الأثير تاريخ الولاية محرم 184هـ، ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري ت630هـ): الكامل في التاريخ، دار صادر للطباعة والنشر، ج5، بيروت، 1979، ص104.

الأغلبية، وعرفت نهضة علمية وفكرية وثقافية بوجود سند علي متواصل عند مشايخ القيروان، واستمرت المدنية في عطاءها الأدبي والفكري والعلمي¹.
لقد تزامن تأسيس الدولة الأغلبية مع العصر الذهبي للدولة العباسية، فكان من الطبيعي أن تواكب الازدهار والتطور العلمي الذي كان يحصل في بغداد و المشرق عموماً، فاستفادت من تشجيع الخلفاء لمختلف صنوف الآداب والعلوم، لا سيما في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل أمثال هارون الرشيد (170- 193هـ/ 786- 809م) وابنه المأمون (198- 218هـ/ 813- 833م) الذي طور حركة الترجمة وأنشأ لهذا الغرض بيت الحكمة في بغداد سنة 215هـ/ 830م². لقد كان إبراهيم بن الأغلب الشخصية المناسبة لتولي أمور إفريقية، لا سيما وأن ولايته على إقليم الزاب من طرف هرثمة بينت كفاءته العسكرية وحنكته السياسية، الشيء الذي دفع هارون الرشيد أن يكتب له بالولاية؛ على أن تكون وراثية وهذا اعتراف صريح من قبله باستقلال إفريقية في تسيير شؤونها مع بقائها مرتبطة اسمياً ومذهبياً بالخلافة العباسية³. وقد تميز مؤسس الدولة الأغلبية بشجاعته العسكرية وحكمته وحنكته السياسية وعرف عنه أنه كان ملماً بالأدب والعلوم الشرعية، حافظ للقرآن وعالم به⁴، وتعلم على يد الليث بن سعد المتوفى

-
- 1- أحمد الطويلي، شہرات القيروان ومعالم حضارية، ط1، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1434هـ/ 2013م، ص5.
 - 2- مجموعة من المؤلفين: دراسة في تاريخ العلوم عند العرب، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، العراق، 1986، ص87.
 - 3- اتخذت الدولة الأغلبية شعار اللون الأسود وهو نفس شعار الدولة العباسية، كما أن أمراءها كانوا يعتنقون المذهب الحنفي رغم أن مذهب غالبية الأهالي هو المذهب المالكي، محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، 184- 296هـ/ 800- 909م، التاريخ السياسي، ترجمة المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1985، ص72.
 - 4- ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان وإليفي برونسال، ج1، دار الثقافة، بيروت، الطبعة 2، 1980، ص93.

165هـ/ 781م في مصر²؛ وإلى جانب ذلك كان إبراهيم بن الأغلب يستقبل الشعراء ويسمع منهم ويصلهم كما ذكر القاضي عياض في مداركه³.
كما اعتنى الأغلبية بجهاز القضاء وبيت المال والجيش؛ فكان القضاء يتمتع بالاستقلالية، أي عدم تدخل الأمراء أو الولاة في شؤونه، وقد تولى هذا المنصب قضاة عرفوا بغزارة الفقه والالتزام بتطبيق الأحكام القضائية وفق العدل والشرع، والقضاة على المذهب المالكي ومنهم: سحنون وابنه محمد. ومن المهام التي أدرجت ضمن جهاز القضاء مهمة الحسبة، فوظيفة المحتسب هي مراقبة الأسواق ومراقبة الآداب العامة، وكان أول من نظم الحسبة في إفريقية هو الإمام سحنون؛ فقد كان يتجول في الأسواق ويراقب من يغشّ الناس في السلع فيؤدّبه. لقد باشر الحسبة والمظالم بنفسه ووفّى العدل حقّه إلى أن لقب بـ "سراج القيروان"⁴.

وكان للأمراء الأغلبية إنجازات هامة ومنشآت ضخمة على المستوى العمراني؛ فقد أنشأ إبراهيم بن الأغلب حمامات كثيرة وفسقيات ومواجل للماء، وكان من أهم إنجازاته

1- إذ ذكر الرقيق القيرواني: "أن إبراهيم بن الأغلب كان فقها ديناً، عالماً، شاعراً، خطيباً، وكان كثير الطلب للعلم و الاختلاف إلى الليث بن سعد الفقيه"، الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب من أواسط القرن الأول الهجري إلى أواخر القرن الثاني الهجري، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي، توفيق السقطي، تونس، 1968، ص214.

2- محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر للطباعة والنشر، 1958، ج7، ص517، ويذكر ابن عذارى أن إبراهيم بن الأغلب قد سمع عن الليث بن سعد، ووهب له جلال أم ولده لمكانه منه، وقال يوما عن إبراهيم "ليكونن لهذا الفتى شأن، ابن عذارى: المصدر نفسه، ص92.

3- القاضي عياض: المدارك، المصدر السابق، ص19.

4- حسن حسيني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية للنشر، تونس 1983، ص66.

العمرانية بناء مدينة العباسية على ثلاثة أميال جنوب مدينة القيروان¹، ثم مدينة رقادة المجاورة أيضا للقيروان. وبفضل أمراء بني الأغلب عمّ الأمن والاستقرار إفريقية، وامتد نفوذها خارج القيروان²، وأقاموا حكومة محلية ذات طابع إفريقي، ثم أن بني الأغلب كانت فيهم عروبة صادقة واهتمام بشؤون العلم والحضارة والمنشآت فكان العصر في جملته رغم كثرة حروبه واضطراباته خيرا على إفريقية وخطوة واسعة إلى الأمام في بقاء المغرب الإسلامي.

وعموم القول أن الحقبة السياسية التي عاصرها سحنون وولده محمد بتونس كانت ميمونة بحسن خلق أمرائها وجلالة قدرهم وحبهم للعلم والعلماء، فهذه الفترة كانت تنعم بالقرار والهدوء والسكينة على الجانبين الداخلي والخارجي، مما ساعد على بناء الشخصية العلمية والفكرية لعلماء المغرب وتونس والقيروان بوجه عام، ولسحنون وولده بوجه خاص³.

المبحث الثاني: مظاهر الفساد الخلقي والانحراف السلوكي في القيروان في نوازل ابن سحنون

المطلب الأول: التعريف بكتاب "الأجوبة" أو "الفتاوى":

1- للمزيد عن العباسية و منشآتها ينظر: G.Marçais, Fouilles à Abbassiya, près de Kairouan : bulletin archéologique du comité des travaux historiques et scientifiques (BACTHS) 1925, p- p 293-305.

فوزي محفوظ: قصر الماء، العباسية، القصر القديم، تعددت الأسماء والموضع واحد، إفريقية، 2002، ص-ص 114-119، و نفس الدراسة نشرت باللغة الفرنسية تحت عنوان: F. Mahfoudh, Qasr al Maa, al Abbasiya et al- Qasr al- qadim : à propos de quelques agglomérations près de Kairouan, dans CRAI, 1^{er} fascn parisn 2003, p- p 49.

2- ابن سحنون، الأجوبة، ص 27.

3- محمد بن سحنون: فتاوى، تحقيق مصطفى محمود الأزهرى، الطبعة الأولى، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، مصر، 2432هـ-2011م، ص 12.

كتاب الأجوبة أو الفتاوى في مضمونه عبارة عن موسوعة تشتمل على أهم وأشهر وأندر المسائل الخلافية والنوازل الفقهية التي ذاعت وذاع الخلاف فيها بين رجال المذهب المالكي، هذه الموسوعة انتظمها أحد طلبة العلم زمن ابن سحنون: وهو "محمد بن سالم" تتضمن أسئلة طرحها على ابن سحنون؛ الذي أجاب عليها بما انقذ لديه من علم بمسائل الخلاف وأقوال أئمة المذهب¹، وغالبا ما كان ابن سحنون يسرد في كل مسألة أقوال علماء المالكية: من أصحاب مالك وأصحاب أصحابه؛ كأشهب وابن وهب وابن نافع وابن كنانة وابن القاسم وأبيه سحنون وغيرهم، وفي أغلب الأحيان كان ابن سحنون يردف جواب المسألة بما ترجح لديه من أقوال هؤلاء الأئمة، وهذا ما يفصح عن تضلعه في فقه مالك رضي الله عنه².

ولعلّ أهم ما في هذه الأجوبة هي صيغتها الحضارية؛ فالسائل محمد بن سالم لم يكن يهمل شأننا من شؤون الحياة الإنسانية لم يسأل عنه المجيب، كما أن هذا لم يهمل سؤالا مما وجه إليه، ولم يكتف في جوابه بتقديم حكم واحد، إلا في أقلها؛ بل قدم في كلها تقريبا الرأي والرأي المخالف، مع الترجيح والتعليل عند الحاجة إليه، والتوسع أحيانا في هذا أو ذاك³. فهذه الأجوبة جديرة أن تحمل عنوانا يدل على أنها: أجوبة حضارية وفقهية في آن واحد، هذه الفتاوى التي تبرز عصر نهضة الأغلبية بالقيروان وما تميز به هذا العصر من خصائص ومميزات ثقافية واجتماعية واقتصادية⁴.

وما يعطينا الصورة الواضحة عن حضارة القيروان في العهد الأغلي؛ هو ما ورد من أجوبة وفتاوى في بعض فصول كتاب الأجوبة، وفي مقدمتها: "فصل البيوع"؛ إذ عثرنا

1- نفسه، ص 23.

2- محمد بن سحنون، فتاوى، المصدر السابق، ص 23.

3- محمد ابن سحنون، الأجوبة، المصدر السابق، ص 05-06.

4- نفسه، ص 14.

فيه على عدّة ألفاظ لها مدلول حضاري منها: وجود البياطرة، معرفة بعض أمراض الإنسان والحيوان كالجدري والسل والجنون والجدام والبرص، واستعمال تشريح الإنسان والحيوان، وكذا وجود بعض الحرف الفنية مثل حرفة الصياغة، وصناعة الدباغة، ونسبة خلط الذهب والفضة بالنحاس أو الرصاص، وظهور التجارة في النحل، ووجود أنواع من الفواكه كالجلّوز والجوز و اللّوز وغيرها؛ مما يدلّ على كثرة الأجنّة، وما إلى ذلك من الأمثلة والوقائع¹.

لقد كان القصد من هذه الأجوبة إلقاء الضوء على مستجدات المشاكل في المجتمع القيرواني وإيجاد الحلول لها؛ اعتمادا على آراء من سبقه من العلماء المجتهدين، وبهذا مثلت نموذجا للتأليف الجامعة بين الأحكام المتعلقة بالدين والدنيا، وبالعبادات والمعاملات البشرية وما ينجر عنها من مشاكل تستنبط أحكامها وفقا لحدوثها في عصر من العصور².

لقد وردت قضايا ومسائل كتاب الأجوبة المتنوعة والمتعددة في عشرين فصلا نذكر أهمها في الآتي:

-مسائل الشهادات وما تعلق بها من تعديل وتجريح الشهود وتزكيّتهم.
-مسائل القضاء. - مسائل النكاح -مسائل الطلاق -مسائل البيوع-مسائل التجارة.
-مسائل الاستحقاقات والدعاوات والخصومات. -مسائل الحرابة والسرقة. -مسائل الأطعمة. -مسائل الأيمان والكفارات. -مسائل التعدي والخيانة والمغارم والضمانات. - مسائل الأحباس والصدقات والهبات...
وإذا عمدنا إلى تحليل ما ورد في فصول الكتاب من مسائل وبالخصوص تلك التي تدل على بعض السلوك المحظور نجد:

1- ابن سحنون، الأجوبة، المصدر نفسه، ص57.

2- ابن سحنون، نفسه، ص34.

*فصل الشهادة: وهو الفصل الأول من كتاب الأجوبة، وهو من أهم فصول الكتاب، ومن أكثر مسأله عددا؛ حيث بلغت تسعا وسبعين مسألة، امتدت من صفحة رقم 94 إلى صفحة رقم 123، ووردت فيه بعض المسائل تعبر عن انتشار بعض السلوكات المذمومة وغير السوية، توحى بارتكاب بعض الأفراد في المجتمع القيرواني للذنوب والمعاصي حتى الكبائر كالزنا وشرب الخمر؛ ومن الأمثلة والشواهد على ذلك: ففي المسائل من 11 إلى 15 عرض لنا ابن سحنون بعض الأمثلة عن الذين تسقط شهادتهم فذكر:

أولا- من أفطر يوما عامدا في رمضان. ثانيا- من لا يواظب على أداء الصلاة في أوقاتها. ثالثا- إجابته بجواز الشهادة عن من غصب أرضا مدة سنين ظلما وعدوانا...اشتهار الغاصبي عصره بالظلم، وأخذ لأموال الناس بالقهر والغلبة، وسفكه دماء المسلمين عن غير حق¹. رابعا- ذكره أصناف عمن لا تجوز شهادتهم عند الإمام مالك وأصحابه ومنهم: المحدود في زنا أو خمر أو قذف. خامسا- سقوط شهادة المدمن على حضور اللهو ومشاهدة محاسن النساء².

وعموما فإن مسائل هذا الكتاب كثيرة ووفيرة فاقت الخمسمائة مسألة، وكلها هامة قيمة ومدعومة بأقوال الأئمة غالبا وبالأحاديث والآثار أحيانا؛ بل يعدّ هذا الكتاب من أصول المذهب المالكي، لاشتماله على كثير من المسائل المنقولة عن الإمام مالك وأصحابه، والتي لا تكاد توجد في غير هذا الكتاب حسب ما ذكره محقق كتاب الفتاوى³ وهذا الذي سنناقشه وتتناوله في المطلب الموالي (الثاني).

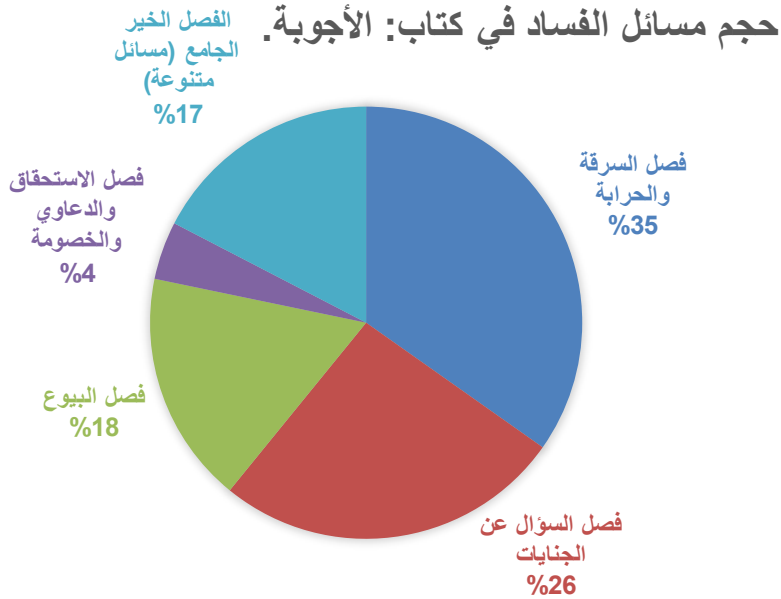
1 - ابن سحنون، الأجوبة، ص 46.

2 - نفسه، ص ص، 43-49.

3 - ابن سحنون، الفتاوى، المصدر السابق، ص 25.

وفي الجدول والرسم التاليين نرصد ونجسد أهم المسائل التي تخص موضوعنا ومواقعها في كتاب الأجوبة وحجمها وعدد صفحاتها:

رقم المسألة وأجوبتها	فصوله ومواضيعها	حجمها وعدد صفحاتها
10 مسائل من المسألة 292 إلى المسألة 303.	فصل السرقة والحراية	08 صفحات
353-354-395-396.	فصل السؤال عن الجنايات	06 صفحات
154-164.	فصل البيوع	04 صفحات.
المسألة رقم 245.	فصل الاستحقاق والدعاوي والخصومة	01 صفحة واحدة
610-611.	الفصل الأخير الفصل الجامع (مسائل متنوعة وغير متجانسة)	04 صفحات.



المطلب الثاني: مظاهر الفساد في فتاوى ابن سحنون

لقد حوى وتضمن كتاب الأجوبة أو الفتاوى باقية من المسائل والأقضية الفرعية التي نلمس كثيرا منها يحدث في زماننا المعاصر، ولا تجد لها جوابا شافيا ووافيا، وبعضها شديد الفروعية بما ينبئ عن شدة ملامسة مسائل هذا المذهب الفقهي للوقائع العملية الواقعية التطبيقية¹ وذكر محقق كتاب الفتاوى حامد العلاني عن ترتيب مسائل وفتاوى الكتاب ما يلي: "وقد جاء ترتيب هذا الكتاب على نظم غريب عن كتب الفتاوى والمسائل التي نعهد غالبيتها تبدأ بمسائل أبواب العبادات (الطهارة والصلاة والصوم

1- ابن سحنون، فتاوى، المصدر السابق، ص 23-24.

والزكاة والحج)، ثم المعاملات (البيوع والإجارة والسلم والرهن...) وهكذا، إنما جاء بترتيب عجيب نظمه كالتالي:

1-فصل مسائل الشهادات....إلى غاية الفصل رقم 20: ومسائل مختلفة غير متجانسة¹.

وعموما فمسائل هذا الكتاب كثيرة ومتنوعة فاقت الخمسمائة، وكلها هامة ومدعومة بأقوال الأئمة غالبا وبالأحاديث والآثار أحيانا. أما المسائل والأقضية التي تتعلق بموضوع هذه الدراسة فهي كثيرة منها: ما تعلق بمسائل النكاح ومسائل الطلاق ومسائل البيوع ومسائل التجارة ومسائل الأطعمة، ومسائل الاستحقاقات والدعاوات والخصومات، ومسائل التعدي والجناية والضمانات وغيرها من المسائل التي تمس النواحي الأسرية والاقتصادية والمالية؛ قد نستنتج من جلها مظاهر تلك التجاوزات والمنكرات والانحرافات التي كانت تحدث في أوساط المجتمع القرواني خصوصا والمجتمع المغربي عموما من: ربي وتطفيف في المكاييل والأوزان وغش في الطعام والملبوس وشهادة زور والقتل العمد. إلا أننا سنركز على قضايا تبرز لنا بصورة جلية وواضحة مظاهر تتعلق بسلوكات الأفراد وأخلاقهم، من فساد وانحراف وتعدي على حقوق الغير وارتكاب الرذيلة وبالضبط ما ورد في الفصلين: الفصل الثامن والفصل العشرين وهو (الأخير والجامع):

*الفصل الثامن: "في مسائل السرقة والحراة" وجاء هذا الفصل في نسختي الكتاب كما يلي:

1- ابن سحنون، فتاوى، المصدر السابق، ص 24-25.

في "الفتاوى": وقع في عشر صفحات وعشر مسائل وأجوبتها من الصفحة رقم 254 إلى الصفحة 264، ومن المسألة الأولى رقمها 204 وصفحها 254 إلى آخر مسألة رقمها 214 وصفحها 264.

في "الأجوبة": وقع في ست صفحات وعشر مسائل وأجوبتها من الصفحة رقم 221 إلى الصفحة 227، ومن المسألة الأولى رقمها 292 وصفحها 221 إلى آخر مسألة وجوابها ورقمها 303 وصفحها 227.

لقد انتشرت وتفشيت رذيلة السرقة في القيروان إلى حدّ الشهور في بعض الأماكن والأوقات؛ والمسألة الأولى في فصل الحراية والسرقة توضح صفة اللصوصية وشهرتها على بعض السراق جاء فيها¹:

- قال محمد بن سالم: سألت محمد بن سحنون قلت له: كيف تقوم السرقة على السارق؟ وهل تغلظ عليه أم لا؟.

قال: إن كان السارق وقع منه ذلك فلتة وغفلة فإنها تقوم عليه قيمة عدل، وإن كان معروفا مشهورا عند الناس بالسرقة فإنها تقوم عليه بالتضعيف والتغليظ وبه جرت السنة من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جاءه أعرابي برجل ادعى أنه سرق منه ناقة؛ فسأل عمر رضي الله عنه عن حاله، ف قيل لهك معروف يا أمير المؤمنين بالسرقة، فقال للأعرابي: كم قيمة ناقتك؟ قال: قيمتها عندي أربعمئة درهم، فحكم عمر رضي الله عنهما على السارق بغرم ثمانمئة درهم. وبهذا فإن السؤال والجواب والقصة التي سردها تعبير على انتشار السرقة في القيروان وشهرة السراق ومعرفتهم من طرف عموم الناس من جهة، ومن جهة أخرى تعد فتاوى وأجوبة ابن سحنون من أصول المذهب المالكي؛ فهي منقولة عن الإمام مالك والصحابة رضوان الله عليهم.

1- محمد بن سحنون، فتاوى، نفسه، ص 254، كتاب: الأجوبة، ص 221.

ويظهر من إحدى إجابات محمد بن سحنون حول الشهادة على السارق أن أكثر السرقات تقع في الليل، وفي أوقات الغفلة التي لا يحضرها العدول ولا غيرهم¹. وقد شملت السرقة الأمتعة والمواشي والمنازل والمطامير². وكانت السرقة تطول حتى الإماء والخادومات؛ وهذا ما نفهمه وما يتأكد لنا من خلال الأسئلة والأجوبة الخمس التالية:

1. جواب ابن سحنون عن سؤال ابن سالم: حول ضمان الراعي من عدمه في حالة نومه وضياع الماشية أو سرقتها؛ بقوله: "...إن نام في موضع الخوف من اللصوص أو السباع، فأخذها للصوص أو السباع فهو ضامن"³.

2. سؤال ابن سالم وجواب ابن سحنون: "إذا أخرج رجل دابة من زرعته فتلقت أو سرقت: فهل هو ضامن؟ وكان الجواب: "إن أخرجها من زرعته... فضلت أو سرقت أو أكلها السباع..."⁴.

3. سؤال ابن سالم لابن سحنون في فصل الاستحقاقات والدعوات والخصومات: رقم 245: "...فإن سرق من رجل سمن أو صوف..."⁵.

4. السؤال رقم 154 في فصل البيوع: وجاء فيه: "قال محمد بن سالم: سألت محمد بن سحنون عن رجل اشترى أمة أو دابة، ثم بلغه الخبر أن فلانا ابن فلان سرقت له أمة أو دابة، فخاف أن تكون هي التي اشتراها هو، فباعها؛ فسمع به المسروق منه، فاتاه فقال له: هات الأمة التي اشتريت، هي لي..."⁶.

1- المسألة 207 وجوابها، كتاب: الفتاوى، ص 256.

2- نفسه، ص 58-60، كتاب: الأجوبة، ص 238-239.

3- محمد بن سحنون، الأجوبة، المصدر السابق، ص 253 (فصل السؤال عن الجنايات رقم السؤال: 353).

4- نفسه، ص 254 (رقم السؤال 354)، الفتاوى، ص 308، مسألة 209 (فصل السؤال عن العداة والجناية والضمانات).

5- نفسه، ص 195 (فصل الاستحقاق).

6- ابن سحنون، كتاب الأجوبة، ص 154.

5. السؤال رقم 164 في فصل البيوع (ص 156-157): إذ سئل الإمام سحنون عن رجل له دين على رجل آخر؛ فلما أراد هذا الأخير -الرجل الذي عليه الدين- الخروج إلى مكة، أمره رب الدين أن يشتري له بدينه سلعة، وفعلا اشترى المأمور تلك السلعة وأشهد عليها أنه اشتراها لفلان، ولكن اعترض طريقه السلافة واللصوص، وأخذوا منه السلعة. وغيرها كثير من الأسئلة والأجوبة التي ترصد لنا انتشار رذيلة السرقة والسراق في القيروان وأنواعها وحكمها وظروفها.

لقد وجدت العصابات واللصوص في الطريق، فقد ذكر المالكي " أن اسماعيل ابن رباح كان في رفقة، فسلمهم السلافة، وكانت له في حياصته دنانير¹. وسأل محمد بن سالم محمد بن سحنون عن رجل بعثت معه بضعة دنانير، فخاف في الطريق من اللصوص؛ فابتلعها في جوف بطنه². وما يؤكد لنا انتشار ظاهرتي السرقة والحرابة في بلاد المغرب الإسلامي بما فيها القيروان؛ واستعمال الحيل والخدع والتدابير للنجاة والسلامة من قبضة اللصوص وقطاع الطرق، والإفلات بأموالهم ومتاعهم؛ ما رواه لنا صاحب "الروض الباسم" في قصة بعض التجار الذين سافروا من تلمسان باتجاه فاس برسم التجارة، وبعد ما تمكنوا من بيع سلعهم قفلوا عائدين، وخوفا أن يتعرضوا في طريق عودتهم إلى السلب والنهب من قبل جماعة اللصوص الذين كانوا ينشطون على الطريق الرابط بين فاس وتلمسان؛ اهتمدوا إلى حيلة حيث اشتروا الطحال والغراء، ولطخوا أبدانهم بها حتى يوهموأ بأنهم مصابون بمرض الجذام، فلما رأتهم الأعراب على هذه الحالة هربوا خوفا من العدوى، وبهذا وصل التجار إلى بلادهم سالمين³. وهذا إن

1- المالكي: روض النفوس، ج 1، ص 341.

2- ابن سحنون، الأجوبة، ص 157-158.

3- عبد الباسط بن خليل، مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتابه المخطوط "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم"، مجلة التاريخ العربي، العدد 17، 2001، ص 58-59.

دلّ على شيء؛ فإنما يدلّ على شدّة الخوف من السّلامة واللصوص وقطاع الطرق لكثرة انتشارها إلى حدّ الشهرة باللصوصية والسّرقه.

كما قال أبو الوليد الفهري: "خرج علينا قوم محاربون وأخذوا كل شيء كان معنا، وعرونا من ثيابنا وأخذوا دوابنا"¹. وقد أشارت كتب الرحلة وكتب النوازل لتلك المصاعب والأخطار التي كان يواجهها المسافرون والتجار والحجاج في الطرقات؛ ومنه ما أشار إليه العبدري في رحلته بقوله: "وجدنا طريقها منقطعاً مخوفاً لا تسلكه الجموع الوافرة إلا على حذر واستعداد... من أضر البقاع على المسافرين، لأن المجاورين لها من أوضع خلق الله وأشدهم إذابة... ولا يمكن أن يجوز عليهم إلا مستعد يتفادون من شره..."². هذا الوصف يبين لنا حالة الفزع والرعب التي كانت تصيب المسافرين والحجاج والتجار؛ فهذه الأوصاف تدل على صعوبة التنقل والحركة في ظل وجود عصابات متمرسه همها الوحيد هو سلب ونهب الأموال باستخدام قوة السلاح³، وأن قطاع الطرق واللصوص كانوا متمرسين على الكر والفر وسرعة التنفيذ، وأنهم كانوا ينفذون غاراتهم في المناطق والمسالك الجبلية والوعرة والبعيدة عن العمران، وكانوا يختارون وقت الهجوم على الركب أو القافلة؛ وهو الوقت الذي يصادف نهاية النهار واقترب غروب الشمس وشعور المسافرين بالتعب⁴.

وحسب الونشريسي كانت عدة مواضع من بلاد المغرب تفتقر للأمن بسبب عصابات من المفسدين كانت تثير الخوف وتحدث الاضطرابات؛ كالمناطق الجبلية والقرى النائية؛ أين كان يتجه هؤلاء المفسدون، ومنها: جبل وسلات القريب من القيروان

1- المالكي، رياض النفوس، المصدر السابق، ج1، ص 406.

2- العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد، رحلة العبدري، ط2، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2005، ص45.

3- محمد بلحسان، عبيد بوداود، اللصوصية وأثرها في حركة القوافل بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني، مجلة التاصرة، مجلد10، عدد2 ديسمبر 2019، ص291.

4- محمد بلحسان، عبيد بوداود، المرجع نفسه، ص292.

الذي كان مستقرا لأهل الشر واللصوص لقطاع الطرق¹. وفي هذا الجبل كان يحدث فرار النساء من أزواجهن ويتجهن نحو الحواضر، ويلجأن للقضاة للمطالبة بالطلاق بسبب الضرر وعدم الإنفاق عليهن، وكان جبل مهروقا (على مسيرة مرحلة من القيروان) أيضا موضعا للفساد وإثارة الاضطراب؛ كما كان مسرحا لحوادث كثيرة من هروب النساء من أزواجهن إلى مدينة القيروان².

***الفصل العشرين(الفصل الأخير: الفصل الجامع): "في مسائل متنوعة":** وجاء هذا الفصل في نسختي الكتاب كما يلي:

في "الفتاوى": وقع في ثلاثة وستين صفحة وسبعة وتسعين مسألة وأجوبتها من الصفحة رقم 481 إلى الصفحة 543، ومن المسألة الأولى رقمها 490 وصفحها 481 إلى آخر مسألة وجوابها ورقمها 587 وصفحها 543.

في "الأجوبة": وقع في سبع وأربعين صفحة وثلاث وتسعين مسألة وأجوبتها من الصفحة رقم 376 إلى الصفحة 422، ومن المسألة الأولى رقمها 610 وصفحها 376 إلى آخر مسألة وجوابها ورقمها 702 وصفحها 422.

ومن المسائل التي تهتم موضوعنا في هذا الفصل الجامع: المسألتان تحت رقمي:

610 و611:

***المسألة الأولى رقم 610 في الأجوبة، ورقم 490 في كتاب الفتاوى:** وجاء فيها: قال محمد بن سالم رحمه الله: قال محمد بن عبد الله بن بكير المخزومي رحمه الله: قال: أتى رجل إلى مالك بن أنس رضي الله عنه، فسأله عن قوم ظلمة، قد غلب فسادهم على صلاحهم،

1- الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه مجموعة من الفقهاء

بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981، ج 1، ص 279.

2- الونشريسي، المعيار، المصدر السابق، ج 3، ص 279.

وغلِبَ شرهم على خيرهم، وضرهم على نفعهم؛ وشأنهم على الدوام الغارات على المسلمين، متى وجدوا الغرة والغفلة لقبيلة أو طريق أو منزل أو دار أو دوار وغاروا عليهم، وأخذوهم بالقهر والغلبة، وأخذوا ما معهم من الأموال، وسفكوا دماؤهم، وهتكوا حرمة النساء والصبيان بالتعري والتجريد من ثيابهم، ويسلبون ما أمكنهم من الحلي والثياب عن النساء والصبيان، ويسبون العبيد والحرائر من العبيد، فهذا دأب هذا القوم على الدوام، فإن لم يمكنهم أخذ أموال المسلمين بالقهر والغلبة، أخذوه بالسرقة؛ لا يسأمون الفساد، ولا يتركون العناد، ولا يسالمون العباد: فما رأيك فيمن أخذ شيئا من مال هؤلاء القوم، على وجه السرقة أو النهب؟¹، واعتبر الإمام مالك بن أنس هذا القوم بهذه الأوصاف الدنيئة (ظلم وسرقة وسفك الدماء وفساد...) بأنهم: محاربون على الحقيقة أي أولئك الذين ذكرهم القرآن الكريم وحكمهم ما جاءت به الآية الكريمة²: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أما حكم ما بأيديهم من الأموال؛ فسبيله سبيل اللقطة...لأنه مال جهلت أربابه...فأخذ ما بيد هؤلاء القوم من الأموال جائز بأي وجه أخذ؛ لأنه لغيرهم وليس لهم فيه شيء، وإنما هو لمن غصبوه أيّاه...³.

1- محمد بن سحنون، كتاب الأجوبة، المصدر السابق، ص376-377، الفتاوى، ص481.

2- سورة المائدة، الآية: 33.

3- محمد بن سحنون، الفتاوى، ص482، الأجوبة، ص377.

وقد وافق هذه المسألة الونشريسي عندما تحدث عن وقوع حوادث السرقة بالاكراه وقطع الطرق؛ فذكر أن مجموعة من اللصوص هاجموا مجشرا¹ وسرقوا ما فيه وأكثر من ذلك أقدموا على قتل رجل من أهل المجشر، وذكر أيضا أن لصوصا كانوا يقطعون السبل ويفسدون في الأرض، وينهبون أموال وبضائع التجار والمسافرين، وكان أمثال هؤلاء يطبق عليهم حق الحراية، وحث الفقهاء على قتلهم درءا لشرهم وفسادهم². وهذا الذي نستنتجه من المسألتين رقم 395 ورقم 396: في المسألة الأولى جاء فيها: "وسألته عن رجل بيده عواري...، ثم كايده هو وأهل منزله قوم؛ فغاروا عليهم، ونهبوا أموالهم، وقتلوا الرجال، وسلبو وسبوا نساءهم والذراري..."³. ويكمل السؤال في المسألة الثانية بقوله: "قلت له: وإن هرب بالعارية أو الوديعة مع بعض متاعه...فسرقه قوم آخرون، أو صادفه أولئك القوم الذين غلبوا عليهم؛ فأخذوه...قال: إن نهبت داره..."⁴. والظاهر أنّ عناصر الفساد لم تقتصر على الأشرار واللصوص وقطاع الطرق؛ بل شملت كذلك الفاسقين وأصحاب الرذائل؛ إذ يشير الونشريسي إلى إمراة من القبروان كانت تجمع بين الرجال والنساء؛ فأمر القاضي سحنون بضربها وسجنها، وإمراة أخرى اتخذت بيتها لممارسة البغاء أمر بجلدها بالسياط وترحيلها من دارها، وسد

1- المجشر: الضيعة أو المزرعة أو موضع الزراعة والرعي معا، للمزيد أكثر عن مصطلح المجشر، ينظر، أحمد المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، الجزء الخامس، دار صادر، بيروت، 1988، ج1، ص256.

2- الونشريسي، المعيار، المصدر السابق، ج2، ص - ص 402-529.

3- محمد بن سحنون، الأجوبة، ص276.

4- محمد بن سحنون، المصدر نفسه، ص276-277.

باب دارها بالطوب والطين وأمر بنقلها بين قوم صالحين¹. ومن جهة أخرى وجود فاسدات فاسقات كن يهرين من أسرهن إلى الجبال رفقة شباب من العزاب، ووجد منهم من ادعت كذبا بأن رجلا اغتصبها كرها؛ من أجل إرغامه على دفع بعض المال مقابل سكوتها وعدم الإبلاغ عنه تجنباً لعقوبة السجن والجلد. وأحيانا كان الرجل يتزوج من امرأة على أنها بكر؛ ثم يتفاجأ بها بأنها ثيب، وتعتزف له بأن شخصا زنى بها في بيت أبيها؛ الشيء الذي يدل على انعدام الرقابة الأسرية في داخل بعض البيوت المغربية، وكذا الانحلال الخلقي وتفشي الرذيلة، وهناك إشارات إلى حالات الإجهاض العمد لمنع الحمل رغم فتاوى الفقهاء بتحريم ذلك²، وكذا وجود بعض الغلمان المخنثين المتشبهين بالنساء؛ وهم مثلهن في الفتنة لتشبههم بهن في الزي والشعر والصوت، لهذا حذر الفقهاء والمحاسبون من الخلوة بهم³.

لقد ضم المجتمع القيرواني أعدادا هامة ممن تسميهم المصادر "أهل الدعارة" وهناك من وصف هذه الطبقة من شواذ الناس بالهامشين والعيارين والشطار والزمامرة والضراطيين والغوغاء والضعفاء والمساكين، وخاصة في سنوات القحط العظيم والغلاء المفرط، والمجاعة العامة وغيرها، وكانت كثيرة الوقوع.

وقصارى القول أن العدل كان يشيع بين الناس فحارب الظلم وعاقب مرتكبه خاصة في المعاملات، فكان قاضي القيروان يعين المحتسب الذي كان يقوم بمحاربة المنكرات ويحمل الناس على احترام المصلحة العامة؛ كمنع المضايقة في الطرقات والرفق

1- الونشريسي، المعيار، ج 2، ص 409.

2- نفسه، ج 10، ص 235، ج 3، ص 167.

3- نفسه، ج 3، ص 37.

بالحيوان وحمل أصحاب البيوت المتداعية على هدمها ومقاومة الغش والخداع في البيع والشراء¹.

وعامة أهل القیروان محافظون قوامون على الحق، لا يهدؤون حتى يردوا كل مستهتر عن غيه أو يناصبوه العداء، وهم بالمرصاد لكل شلة من شباب بالمدينة تلهو وتقصف، حتى إذا شاع لهوهم وافتضحت عربدتهم وسكرهم، سلطوا عليهم أهل الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، وربما أثاروا الفقهاء لرفع أمرهم إلى السلطان، ليرج منهم قبل أن تتفشى عدواهم².

ويذكر أبو العرب أن أحد القائمين على أسواق القیروان من المحتسبين توفي فلم يوجد لديه ما يكفن فيه حتى كفنه بعض التجار³، وهذا دليل واضح على أمانة هؤلاء المحتسبين وعدم أخذهم للرشوة وعند تولية الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب حاول تغيير الظلم الذي أحدثه العمال ومنعهم من الاستيلاء على أموال الرعية وقطع النبذ من القیروان؛ مما جعل الناس يحمدون له ذلك غير أن ابراهيم بن أحمد لما بنى رقادة قطع النبذ من القیروان وأباحه برقادة؛ مما جعل أحدهم يعرض على الأمير تحليل النبذ بمدينة رقادة وتحريمه بمدينة القیروان⁴. أما بعض ظرفاء القیروان فيسجل ذلك بشعر أرسله إلى الأمير:

يا سيد الناس وابن سيدهم ومن إليه الرقاب منقادة
ما حرم الشرب في مدينتنا وهو حلال بأرض رقادة

1- حسن حسيني عبد الوهاب: بساط العتيق، المرجع السابق، ص 27.

2- المنجي الكعبي: القیروان، المرجع السابق، ص 130.

3- أبو العرب: الطبقات، المصدر السابق، ص 251.

4- المنجي الكعبي: القیروان، المرجع السابق، ص 130.

وهذا مظهر من النقد الاجتماعي للحكام حيث أحل محرما في مقره رقادة وحرمة في القيروان.

أما الفقهاء فقد وقفوا موقفا حازما وصارما، ولعبوا دورا هاما وأساسيا في محاربة اللصوصية والحرابة وقطع الطريق، وهذا ما ذكرته كتب النوازل¹، ومن ذلك سؤال الفقيه أبو العباس أحمد المريض عن مشروعية محاربة اللصوص، كما نهى الفقهاء الناس من التعامل معهم، وأمروهم بأن لا يبيعونهم القمح والشعير والحيوانات؛ حتى لا يتقوا بها على المسلمين، كما أمروهم بأن لا يصاحبوا الظلمة واللصوص وأكل طعامهم وحتى التزوج منهم². وكان أمثال هؤلاء يطبق عليهم حق الحرابة، وحث الفقهاء على قتلهم درءا لشركهم وفسادهم³. فقد كان قاضي القيروان بمنزلة شيخ إسلام لعموم البلاد وإليه المرجع في تسمية قضاة الجهات⁴، و زاد سحنون فقدم على الحسبة أمناء⁵، كما جعل الودائع عند الأمناء⁶، و قد عرفت مهنة القضاء و ما تبعها تغيرا كبيرا مع سحنون بظهور أمناء الحسبة ثم تدرجت إلى أعلى المراتب مع عبد الله بن طالب الذي

1- المازوني أبو زكرياء، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ج1، ص382، ج3، ص92، ج4، ص93، محمد بلحسان، عبيد بوداود، المرجع السابق، ص 299-300.
2- محمد بلحسان، عبيد بوداود، المرجع نفسه، ص 299-300.
3- الونشريسي، المعيار، المصدر السابق، ج2، ص- ص 402-529.
4- حسن حسيني عبد الوهاب: بساط العتيق، المرجع السابق، ص 44-45.
5- ابن ناجي، أبو القاسم بن عيسى: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان المكتبة العتيقة، الطبعة الثانية، تونس 1993، المصدر السابق، ج2، ص87.
6- نفسه، ص88.

فوز إليه ابراهيم بن أحمد النظر في الولاة و الجباة و الحدود و القصاص والعزل و الولاية¹.

خاتمة:

قدم هذا المقال جانبا أساسيا من الجوانب الاجتماعية؛ وهو ما يتعلق بظاهرة الفساد الخلقي والانحراف السلوكي في القيروان من خلال نوازل وفتاوى: " الأجوبة لمحمد بن سحنون"؛ فكتب الفتاوى والنوازل أصبحت تكتسي أهمية كبرى باعتبارها مصادر للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي العربي بوجه عام و المغربي بوجه خاص، تقدم لنا معلومات مستفيضة عن جوانب مختلفة لتاريخ وحضارة المغرب الإسلامي. ويعود الفضل في لفت الانتباه إلى هذه الأهمية إلى مجموعة من المستشرقين الذين ترجموا النصوص الفقهية واستنبطوا منها الأخبار التاريخية والاقتصادية والاجتماعية.

والظاهر أنه في الآونة الأخيرة تفتن ثلة من الباحثين في ميدان الدراسات الإسلامية والتاريخية واللغوية إلى الإمكانات العلمية والمعرفية التي تزخر بها كتب النوازل، لذا سعوا إلى إخراجها من دائرة المخطوط والنسيان إلى دائرة المطبوع والدراسة ومن ثم الاستفادة والإفادة، كما نشطت عمليات دراسة النوازل الفقهية باعتبارها مجالا بكرا يقدم للباحثين معطيات متنوعة في مجالات فكرية وعلمية وسياسية واقتصادية واجتماعية.

فلا غرابة أن يثير أماننا كتاب "الأجوبة" هذا الأثر التراثي القيم صورا من الحياة الواقعية؛ بما فيه من قيم، وبما يقدمه للناس من مظاهر الحق والعدل، ومن مجريات الحياة المختلفة بالقيروان في القرن الثالث الهجري، وهي إذ ذاك في مقدمة حواضر

1- المالكي: الرياض، المصدر السابق، ج1، ص476.

العالم الإسلامي، وشعبها يتفاعل بما يطرأ من تغيرات على البشر من مد للحضارة وجزرها؛ فأوساط يغلب عليها الأمن ويسودها الاطمئنان والاستقرار، وأخرى تكافح ما ينجم عنها من اختلال وفوضى. والناس يواجهون ما يعترض المجتمعات اليوم من حاجة إلى الاشهاد وإلى القضاء وإلى الخصومة في المعاملات التجارية، ومشاكل الحياة والاستحقاق، وجرائم القتل والسرقة والنهم، أو الغارة والحراية.

لقد أفادتنا وأطلعتنا حقا هذه الفتاوى أو الأجوبة على قضايا الحق والعدل؛ وهي مثل ما تزال المجتمعات في كل أنحاء المعمورة تطمح إلى تحقيقها وإثباتها، ومجالات فكرية متعددة ومسالك ذكية لفضّ النزاعات، وإسكات الخصوم، وإعطاء كل ذي حق حقه. وأبهى وأحلى من كل ذلك هو ما يجده الدارس لهذا الكتاب؛ ممّا يتعلق بالحياة العملية في المجتمع الأغلب: أنّ ظاهرة التآلف والتضامن والتحابب بين مختلف طبقات المجتمع القيرواني من حاكم ومحكوم، وغني وفقير، وفقه وجاهل، أمر شائع بينهم. ومن ذلك ما أشارت إليه المصادر؛ إذ في ظلّ انتشار تلك التجاوزات اللاأخلاقية والسلوكات المذمومة، ووجود تلك الطبقة من شواذ الناس، اشتهر العديد من الفقهاء بالقيروان بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، ويدل انتشار قيم الرحمة والإحسان على بقية المجتمع، فقد عوضت هذه القيم العدالة والمساواة؛ فالتصدق على السائلين هو في حد ذاته اعتراف ضمني بطبيعة التفاوت في الفقر والغنى، ويحكى أن "رباح بن يزيد" كان إذا دخل الشتاء أخذ في البكاء رحمة للفقراء .

قائمة المصادر والمراجع :

1. ابن عذارى المراكشي (أبو الحسن أحمد كان حيا سنة 712هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان و إ.لوفي بروفنسال، ج1، دار الثقافة، بيروت، الطبعة 2، 1980.
2. ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري ت630هـ)، الكامل في التاريخ، دار صادر للطباعة والنشر، ج5، بيروت، 1979.

3. أبو العرب بن تميم (محمد بن أحمد القيرواني ت 333هـ/944م)، طبقات علماء إفريقية، تحقيق محمد بن أسد الخشني، دار الكتاب، بيروت، دون تاريخ.
4. أبو القاسم بن عيسى بن ناجي، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان المكتبة العتيقة، الطبعة الثانية، تونس 1993.
5. أبو فارس حمزة، مدونة الإمام سحنون، مراحل تدوينها- منزلتها بين الأمهات- شروحا واختصارها، محاضرات ملتقى الإمام سحنون، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، 7-8-9 جمادى الثانية 1412هـ/ 13-14-15 ديسمبر 1991، 1993، الطبعة الأولى.
6. أحمد الطويلي، شہرات القيروان ومعالم حضارية، ط1، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1434هـ/ 2013م.
7. أحمد المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، الجزء الخامس، دار صادر، بيروت، 1988.
8. حسن الحسيني عبد الوهاب، بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن الرشيقي، مكتبة المنار، الطبعة الثانية، تونس 1970.
9. حسن حسيني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية للنشر، تونس 1983.
10. الدباغ (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري)، معالم الإيمان في معرفة أصل القيروان، ج1، تحقيق، محمد ماضور، ومحمد الأحمدى أبو النور، مكتبة الخانجي، مصر، المكتبة العتيقة، دون تاريخ.
11. الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب من أواسط القرن الأول الهجري إلى أواخر القرن الثاني الهجري، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي، توفيق السقطي، تونس، 1968.
12. سحنون (بن سعيد التنوخي ت 240هـ/ 854م): المدونة، نشر محمد ساسي المغربي التونسي، مطبعة السعادة، مصر، 1905.
13. الشيخ عبد الرحمن خليف: القيروان من أغزر منابع للفقہ المالكي، محاضرات ملتقى القيروان، مركز علمي مالكي بين المشرق والمغرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، ذو القعدة 1414هـ/ 15-16-17 أفريل 1994م، 1995، الطبعة الأولى.

14. عبد الباسط بن خليل، مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتابه المخطوط "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم"، مجلة التاريخ العربي، العدد 17، 2001، (من: ص 39 إلى ص 75).
15. العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد، رحلة العبدري، ط2، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2005.
16. القابسي أبو الحسن علي، الرسالة المفصلة في احوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، تحقيق، أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، الطبعة الأولى، تونس، يناير 1986.
17. القاضي عياض أبو الفضل بن موسى، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.
18. الكعبي منجي، القيروان، مطبعة وراق، دار الشباب تونس، الطبعة الثانية، 2009.
19. المازوني أبو زكرياء، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، الأجزاء: 1-3-4، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
20. المالكي (أبو بكر عبد الله بن محمد ت في القرن 5هـ/11م)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزادهم ونسأهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ج1، تحقيق بشير البكوش، مراجعة محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.
21. مجموعة من المؤلفين، دراسة في تاريخ العلوم عند العرب، وزارة التعليم العالي و البحث العلمي، مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، العراق، 1986.
22. محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، 184- 296هـ/800-909م، التاريخ السياسي، ترجمة المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1985.
23. محمد الطالبي، دراسات في تاريخ إفريقية، السلسلة الرابعة، مجلد 20، منشورات الجامعة التونسية، تونس.
24. محمد بلحسان، عبيد بوداود، اللصوصية وأثرها في حركة القوافل بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني، مجلة التاصرية، مجلد10، عدد 2 ديسمبر 2019.

25. محمد بلغراد، الحركة الإباضية في تيمرت و سدراتة، مجلة الأصالة، العدد 41، 1977.
26. محمد بن سحنون، آداب المعلمين، تقديم وتحقيق مقارن، محمود عبد المولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الرغاية، الجزائر، الطبعة الثانية، 1981.
27. محمد بن سحنون، الأجوبة، تحقيق، حامد العلاني، الطبعة الأولى، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1432هـ-2011م.
28. محمد بن سحنون، فتاوى، تحقيق مصطفى محمود الأزهري، الطبعة الأولى، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، مصر، 2432هـ-2011م.
29. محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، الجزء السابع، دار صادر للطباعة والنشر، 1958.
30. محمد طالبي، دراسات في تاريخ إفريقية وفي الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط، منشورات الجامعة، تونس 1982، ص-ص 151-156.
31. محمد علي، الإشعاع الفكري في عهد الأغالبة و الرستميين خلال القرنين 2-3هـ/8-9م، مذكرة ماجستير في تاريخ المغرب الوسيط، جامعة تلمسان، 2007-2008.
32. الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أخرجه مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981، الأجزاء، الأول والثالث والخامس والعاشر.

33- F. Mahfoudh, qasr al Maa, al Abbasiya et al- qasr al- qadim : à propos de quelques agglomérations près de Kairouan, dans CRAI, 1^{er} fascn parisen 2003.

34-G.Marçais, Fouilles à Abbassiya, près de Kairouan : bulletin archéologique du comité des travaux historiques et scientifiques (BACTHS) 1925.